

محاولات الإصلاح الديني في إسبانيا في القرن السادس عشر

م. د. فاتن محيي محسن
قسم التاريخ / تاريخ حديث اوربا
كلية التربية الأساسية - الجامعة المستنصرية
بغداد - العراق

الخلاصة

ان حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر من أهم الاحداث الدينية في تاريخ المسيحية التي استهدفت إصلاح الخلل والعيوب التي كان يعيشها المجتمع المسيحي الناتجة عن تصورات الكنيسة الكاثوليكية وتعاملها مع الواقع الاوربي. وادت إلى انقسام العالم الكاثوليكي الغربي إلى قسمين متعارضين، وخلق مذهب مسيحي جديد وتنظيمات دينية جديدة عرفت بالبروتستانية التي أرادت إعادة صياغة المفاهيم الكنسية ومؤسساتها من جديد. وتعد فترة الإصلاح الديني حقبة محورية في تاريخ العالم إذ إنها حوّلت اوربا روحياً وفكرياً وحطمت الوحدة الدينية التي كانت سائدة، فظهرت اشكال جديدة للحياة الدينية بينما بدأت الاشكال القديمة بأكتساب قوة جديدة عندما بدأت الكنيسة الكاثوليكية بإصلاح نفسها من الداخل. فظلت البروتستانية على قيد الحياة في مختلف انحاء اوربا لكنها لم تنتصر في اسبانيا المناهضة للأفكار الإصلاحية المخالفة للكنيسة الكاثوليكية، وعلى هذا الاساس تساهم هذه الدراسة في تسليط الضوء على محاولات الإصلاح الديني في اسبانيا وعوامل حدوثها وأسباب فشلها ومدى تأثيرها على مجريات الاحداث. يناقش البحث مرحلة مهمة في التاريخ الديني لإسبانيا تتمثل بالمحاولات الاولى للإصلاح الديني في المملكة الإسبانية، وثم تطرق لمهدات انتشار البروتستانية(اللوثرية) في إسبانيا، وسياسة قمع واجتثاث البروتستانية ومدى تأثيرها على مستقبل الأمة الإسبانية إلى جانب دراسة أساليب وممارسات محاكم التفتيش الإسبانية، وختاماً تناول البحث أوضاع البروتستانت الإسبان المنفيين في مختلف انحاء اوربا الغربية.

Attempts of Religious Reform in Spain in the Sixteenth Century

Dr. Faten Mohie Mohsen

**Department of History/ History of modern Europe
University of Mustansiriya - Faculty of Basic Education
Baghdad - Iraq**

ABSTRACT

The religious reform movement in the sixteenth century is one of the most important religious events in the history of Christianity, which aimed at correcting the imbalances and defects that the Christian community experienced as a result of the perceptions of the Catholic Church and its treatment of European reality. And led to the division of the Western Catholic world into two opposing sections, the creation of a new Christian doctrine and new religious organizations known as Protestantism, which wanted to rephrase the concepts of the Church and its institutions. The period of religious reform was a pivotal period in the history of the world. It transformed Europe spiritually and intellectually and shattered the prevailing religious unity. New forms of religious life emerged as the old forms began to gain new strength when they began when the Catholic Church began to reform itself. Protestantism remained alive throughout Europe but did not prevail in Spain against the reformist ideas contrary to the Catholic Church, and on this basis, this study contributes to shed light on the attempts of religious reform in Spain, the factors of their occurrence, the reasons for their failure and their impact on the events. The research discusses an important stage in the religious history of Spain, which is the first attempts at religious reform in the Spanish Kingdom, and then addressed the platforms of the spread of the Lutheranism in Spain, the policy of suppressing and eradicating the Protestant and its impact on the future of the Spanish nation as well as studying the methods and practices of the Spanish Inquisition. The status of the exiled Spanish Protestants throughout Western Europe.

أولاً: المحاولات الأولى للإصلاح الديني في إسبانيا

فرضت الكنيسة الكاثوليكية عقائد وأسراً غامضة على تابعيها ومنعتهم من مناقشتها، وعد المناقش فيها أو الشاك في أمرها كافرأ مهترطاً وجبت عليه اللعنة الإبدية. وقد احتكر رجال الدين دراسة الكتاب المقدس، فكانت الكنيسة حريصة على تفسير الدين باتجاه يخدم مصالحها ولذلك منعت الناس من قراءة الكتاب المقدس دون إشراف رجل دين حتى لا تفسر نصوصه بصورة لا تخدم مصالحها، وساعدها في ذلك ان رجال الدين كانوا يمثلون الفئة المتعلمة الوحيدة تقريباً في ذلك الوقت. ولقيت محاولات حرية البحث مقاومة عنيفة من جانبها إذ هيمنت على كل ميادين البحث العلمي، وفرضت عليها ما تراه حقاً وجعلت الفكر الحر في الاغلال⁽¹⁾. لذلك لم تمتلك إسبانيا الكتاب المقدس بلغتها المحلية، ففي عام 1388 أصدر خوان الأول ملك اراغون Juan I (1388-1396) قراراً يمنع فيه قراءة اي جزء من العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الانجيل) باللغة الإسبانية، وحرقت جميع الكتب المقدسة المكتوبة باللغة الإسبانية⁽²⁾. ومنذ القرن الخامس عشر أصدر رجال الدين الكاثوليك في إسبانيا قراراً بحرق واتلاف الكتب العلمية والأدبية التي كانت تُكتب باللغة العبرية والعربية حيث نُظر لها بأزدراء من قبل الإسبان الجهلة، وأشادت الكنيسة بالجهود التي بُذلت لتدمير الاعمال الأدبية الاغريقية واللاتينية والقشالية، لأن هذه الاعمال كان من الممكن ان تقود إلى افتراض وجود علوم يجهلها رجال الدين. فصدرت في عام 1434 احكاماً كنسية بحرق مكتبة هنري الاراغوني Henry of Arragon ماركيز منطقة بيلينا Villena، وأصدر خوان الثاني ملك قشتالة وليون Joan II (1405-1454) قراراً بحرق كل الكتب التي تتضمن افكاراً مهترطة ففي عام 1490 تم حرق (6000) كتاب باللغة العبرية بحجة انها تضم مواضيع متعلقة بتحضير الارواح وتفسيرات هرطقية للكتاب المقدس، ولكن رغم هذا الاضطهاد فأن بعض الكتب أنقذت من اللهب. كما تشكلت في عام 1502 مجالس ولجان كنسية لمراقبة طباعة وبيع الكتب في المدن الإسبانية، ولهذا فأن مع زيادة قلق الكنيسة ازدادت المصاعب والمخاطر التي هاجمت اولئك الراغبين في التخلص من قيود النظام المثبت وتكريس حياتهم لاكتشاف الحقيقة والترويج لها⁽³⁾.

وتعد محاكم التفتيش الإسبانية أبرز أداة بيد الكنيسة الكاثوليكية للبحث عن المشتبهين بهم بتهمة الهرطقة في إسبانيا، وقد تأسست بموجب المرسوم الذي أصدره البابا سكستوس الرابع في 1 تشرين الثاني 1478 حول فيه الملوك الكاثوليك (فرديناند وإيزابيلا) لتشكيل اول محكمة تفتيش في اشبيلية في 17 ايلول 1480، وكان السبب الرئيس لتشكيلها هو لملاحقة اليهود الذين اجبروا على اعتناق المسيحية بمرسوم عام 1412 الذي خبر فيه اليهود بين اعتناق المسيحية أو الموت. ويطلق عليهم اسم (المتحولين أو المارانوس وتعني الخنازير بالإسبانية)، فقد اضطرت معظم اليهود إلى اعتناق المسيحية ولكنهم ظلوا يمارسون طقوسهم سراً فكانوا يهوداً في كل شيء ومسيحيين بالاسم فقط. وقبل أن يطول المقام حولت محاكم التفتيش الإسبانية اهتمامها إلى المسلمين بعد سقوط غرناطة عام 1492 إذ فرض على المسلمين أما اعتناق المسيحية أو التهجير القسري، فأطلق اسم المورسكيون على المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية وكانوا يُعدون بالنسبة للإسبان من الخونة المارقين على الرغم من تنصرهم. فبدأت تلك المحكمة بملاحقة من تشك به من المنتصرين العرب بوحشية متناهية فقد كان المورسكيون يشكلون الغالبية العظمى ممن صادرت المحكمة املاكهم التي شكلت رافداً اقتصادياً لعمل محاكم التفتيش الإسبانية، وقد صدرت عام 1511 سلسلة من الاوامر الملكية تضمنت اشد الاجراءات تعسفاً بحق المورسكيين⁽⁴⁾.

اتسمت محاكم التفتيش الإسبانية بالوحشية ومارست اعمالها بكل عنف وباتت تصدر الاحكام الجماعية بأحراق المتهمين احياناً، فضلاً عن استخدامها وسائل التنكيل والتعذيب ومصادرة الممتلكات لأكراه المتهم على الاعتراف لكون محاكماتها سرية وأحكامها غير قابلة للاستئناف. ويذكر أحد الامناء العاملين لمحكمة التفتيش بأن عدد الضحايا في إسبانيا بين عامي 1480-1488 بلغ 8800 أحرقوا، و 96490 عوقبوا بعقوبات صارمة⁽⁵⁾. كما مارست محكمة التفتيش الإسبانية سياسة بشعة لضمان النقاء العرقي لأن الانحراف الديني والعرقي كانا وبسهولة متساويين في نظرهم، وفي الحقيقة فأن الاهتمام المفرط بنقاء الايمان رافقه اهتماماً مُمائلاً لنقاء الدم، وكلاهما كان أكثر عنفاً في العقود المتوسطة من القرن السادس عشر، كما استخدمت اساليب الابلاغ والاتهام مما أدى إلى تضيق الحياة الإسبانية. فأصبح النسب النقي شرطاً لا يمكن الاستغناء عنه لعضوية نظم دينية معينة والمؤسسات التعليمية والإدارية، وعلى هذا الاساس ارتبطت محكمة التفتيش الإسبانية بالتاج لا بالبابوية بعد ان اصبحت أداة رهيبة في يد فرديناند وإيزابيلا لتحقيق طموحهما في حكم دولة موحدة تخضع لهما على نحو مطلق، واستمرت محاكم التفتيش الإسبانية حتى تم الغائها نهائياً عام 1834⁽⁶⁾.

وخلال السنوات 1510-1520 فقدت محكمة التفتيش الإسبانية مكانتها وسمعتها بسبب اساليبها التعسفية والاستبدادية بعد أن توسعت سلطاتها وامتيازاتها حتى اصبحت لها السيطرة المطلقة على المحاكم المحلية، فأصبحت هدفاً للأنقاد والاعتراض مما خلق لها الكثير من الاعداء الذين مارسوا ضغطاً شديداً على شارل الخامس إمبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة وملك إسبانيا Charles V (1518-1558) لتنفيذ برنامج شديد لأصلاح المحكمة لتحديد سلطاتها

فقد كان معترضاً أيضاً على اساليب محاكم التفتيش التعسفية. ولكن قرار شارل الخامس بالوقوف ضد تلك المحكمة انهار بسبب اتصال سكان اراغون بالبابوية لمناشدتها للتدخل ضد محكمة التفتيش الإسبانية متجاهلين شارل الخامس الذي كان يرفض التدخل البابوي لأن من شأنه أن يهدد بإزالة سيطرة التاج في المحكمة لذلك قرر الغاء برنامج الاصلاح واسكات خصومه. كما أن الكاردينال ادريان Adrian (1459-1523) المفتش العام في محكمة تفتيش اراغون والذي تولى منصب البابا بأسم ادريان السادس (1522-1523) اقنعه بعدم تنفيذ برنامج الاصلاح بسبب انتشار حركات دينية جديدة في إسبانيا، وظهور اللوثرية في ألمانيا فمخ تلك المحكمة مجالاً جديداً وواسعاً لنشاطاتها لإنهاء الهرطقة⁽⁷⁾. إذ شهدت إسبانيا في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر ظهور اتجاهات معينة تنحرف عن التيار التقليدي لاستقامة الايمان المسيحي من خلال دخول افكار دينية جديدة إلى المملكة الإسبانية نتيجة اقترانها بالأراضي المنخفضة وإيطاليا. وكانت هذه الافكار غير منسجمة مع القواعد التقليدية للأيمان المسيحي، ففي الأراضي المنخفضة اتخذت المسيحية شكلاً قوياً للعبادة والتقوى على حساب المراسيم الكنسية الكاثوليكية، وفي فلورنسا اكتسبت تلك العبادة صفة تنبؤية رؤيوية مما جعل شكلها جذاباً جداً لعدد من الرهبان الفرنسيين الإسبان في إيطاليا. وإن كلا الشكلين للعبادة وجد له مخلصين في إسبانيا بين الفرنسيين من المتحولين (يهود اعتنقوا المسيحية) والنساء العابدات، وهذه الحالة يمكن ان تعكس ميلاً بالنسبة للإسبان المتدينين من اصل يهود للهروب من الكاثوليكية البابوية إلى الكاثوليكية الروحية⁽⁸⁾. وفي السنوات المبكرة من القرن السادس عشر اتخذت تلك العبادة حركة دينية جديدة في إسبانية أطلق عليها حركة التنوير أو الأشرار Illumination، بعد أن بدأت ايزابيلا دي لاكروث من منظمة الاخوة الفرنسيين بتنظيم مراكز عبادة في طليطلة والكاللا. وبتأثير تلك الاخوة تولى اتباعها الذين أطلق عليهم اسم المتنورين (Alimbrados بالإسبانية) عن الطريقة الرؤيوية (التنوير الانفعالي العاطفي)، واتخذوا نوعاً من الاستسلام والخمول الروحي الصوفي الذي يسمى بالإسبانية Dejamiento. إن هدف هذا النوع من العبادة اتصال الروح بالرب من خلال عملية تنقية داخلية تنتهي بالخضوع التام للمشيئة الإلهية اي تفويض الحكم للرب، ويعتقدون بأنهم غير قادرين على اقتراف الذنوب وغالباً يتوصلون إلى استنتاج بأن الاعمال الحسنة لا فائدة منها⁽⁹⁾.

إن النجاح الملحوظ الذي أحرزته ايزابيلا دي لاكروث وانتشار مذهب الحركة التنويرية في بلد الوليد وكوادا لاخارا أصبح مصدر اهتمام محكمة التفتيش الإسبانية الي اصدرت اول حكماً يشجب المتنورين في عام 1519، ثم صدر قرار في عام 1524 بأعتقال ايزابيلا دي لاكروث واتباعها بتهمة الهرطقة، وفي 23 ايلول 1525 شجبت محكمة التفتيش حركة التنوير واصدرت قرارها بهرطقة مارتن لوثر (1483-1546)⁽¹⁰⁾. ورغم وجود تمييز واضح جداً بين حركة التنوير واللوثرية بل اختلافات اساسية بينهما، فإن محكمة التفتيش الإسبانية شعرت بالشك بأرتباطهما الوثيق لاسيما إن كلتا الحركتين قد ركزت بشدة على العبادة الداخلية وليس المراسيم المظهرية، وعدم فائدة الاعمال الحسنة وساهمت في تعبيد الطريق لدخول البروتستانتية إلى إسبانيا. لم يواجه الديوان المقدس (أعلى سلطة دينية في إسبانيا) صعوبة كبيرة في التعامل مع المتنورين لأن غالبيتهم من الناس البسطاء الذين لا يملكون دعماً مؤثراً من جهات متنفذة، فأعتقل اي شخص مشكوك به في ممارسة التنوير والحكم عليه بعقوبات قاسية. وبهذا الشكل اصبحت حركة التنوير تحت سيطرة محكمة التفتيش الإسبانية خلال عشرينيات القرن السادس عشر⁽¹¹⁾.

وكشف الديوان المقدس خلال مجرى حملته ضد المتنورين نظيراً معقداً للتنوير يتمثل في الحركة الأيراسموسية Erasmianism والتي اصبحت في الفترة 1522-1525 حركة ذات شعبية واسعة بين اوساط المثقفين الاسبان⁽¹²⁾. ومن الناحية الفنية لم يكن هناك اي هرطقة حول مبادئ ايراسموس الروتردامي الذي تأثر بأفكاره العديد من شخصيات البلاط الإسباني والكنيسة، لكن بدأ الشعور بالخوف والكراهية تجاه الحركة الأيراسموسية على أساس بضعة نواحي، فقد اعتقدوا بأنها تمنح المساعدة والعون إلى اللوثرين من خلال التأكيد على النواحي الداخلية للدين على حساب اشكال المراسيم المظهرية مثلما أكد ذلك المتنورين، وقد تعززت شكوكهم باكتشاف اتصالات بين الجماعات الأيراسموسية والتنويرية فأصبحت كتابات ايراسموس تثير خوفهم وقلقهم فقد كان يمتلك ثقافة واسعة حتى لقب بـ(المبشر) وله مؤيدين في إسبانيا واتقين من قوتهم، لذلك عقدت المجموعات الكنسية الكاثوليكية المتعصبة اجتماعاتها في مدريد عام 1527 انتهت بأصدار قرار يلعن ويحرم شرح كتابات ايراسموس في المدارس أو بيعها أو قراءتها فضلاً عن منعه من عقد الحلقات الدراسية والاجتماعات، فنجحت المحكمة في ان تربط في عقل المجتمع تعاليم ايراسموس بهرطقة مارتن لوثر فصدرت الاحكام القاسية ضدهم في عام 1538 وبذلك تم استئصال الحركة الأيراسموسية⁽¹³⁾.

ثانياً: مهدات انتشار البروتستانتية (اللوثرية) في إسبانيا

شهد النصف الاول من القرن السادس عشر انتشار بذور الإصلاح الديني في قلب إسبانيا بوسائل مماثلة لما حصل في شمال اوربا، وإن تاريخ تلك الفترة يقدم لنا الكثير من الضحايا البارزين الذين سقطوا في ايدي محاكم التفتيش الإسبانية التي لا يمكن مواجهتها⁽¹⁴⁾. وكان انتشار الكتابات اللوثرية الوسيلة الفعالة لنشر المذهب البروتستانتى، ففي بداية عام 1519 أرسل جون فروبين John Fro ben الذي كان يعمل في الطباعة في مدينة بازل السويسرية مجموعة من كتابات مارتن لوثر إلى إسبانيا باللغة اللاتينية لذلك كانت مقتصرة على المتعلمين الذين يجيدون اللاتينية فقط والتي أعيدت طباعتها لاحقاً. كما وصلت الآراء اللوثرية إلى اذهان الإسبان من خلال التجار الإسبان في ميناء أنتويرب Antwerp في الاراضي المنخفضة وهو ميناء تجاري يضم سوقاً ضخماً يقع ضمن مناطق حكم شارل الخامس؛ وفي هذا الميناء ترجمت وطُبعت كتابات مارتن لوثر فأستطاع هؤلاء التجار شراء نسخ من هذه الكتابات ونقلها معهم بعد عودتهم إلى إسبانيا. إن الآراء الإصلاحية (اللوثرية) أدخلت إلى هذا السوق الضخم كنتيجة للجوء عدد ضخم من الاجانب وبأستمرار إلى هذا الميناء وتمتعهم بحرية واسعة اينما تزدهر التجارة، وكان الإسبان مديونيين لتجار أنتويرب فيما يخص وسائل التنوير فضلاً عن تشجيع هؤلاء التجار على ترجمة الكتاب المقدس والكتابات اللوثرية إلى اللغة الإسبانية. إذ أن قراءة الكتاب المقدس باللغات المحلية أيقظت الإسبان وجعلتهم يشعرون بنفس الشوك التي شعر بها المصلحون في البلدان الاخرى⁽¹⁵⁾. وفي عام 1520 نُشرت ترجمة إسبانية لأحدى كتابات مارتن لوثر تعليق حول غلاطية Galatians⁽¹⁶⁾ في الفلاندرز (الاراضي المنخفضة)، ثم نُشر له كتاب بعنوان (حرية الانسان المسيحي) وفي هذه المرحلة كان المعروف عن مارتن لوثر في إسبانيا ليس اكثر من مجرد إشاعة عامة حول شخص مهترق ظهر في ألمانيا⁽¹⁷⁾.

شهد عهد شارل الخامس إجراءات قاسية لمنع انتشار اللوثرية في إسبانيا، ففي 10 آذار 1521 أصدر البابا ليو العاشر Leo X (1513-1521) مرسومين لمنع دخول كتب مارتن لوثر والمدافعين عنه إلى إسبانيا. كما اصدر الكاردينال ادريان في نيسان 1521 قراراً بحظر كل كتابات مارتن لوثر ومنح السلطة لمسؤولي محكمة التفتيش الإسبانية للاستيلاء على كتب الهرطقة، وفي عام 1523 جدد هذا القرار بعد ان تولى منصب البابا بأسم ادريان السادس. وقد اشترط على حاكم كيبوتوكوا في إقليم الباسك شمال إسبانيا تزويد مسؤولي محكمة التفتيش بالمساعدات الضرورية لضمان تنفيذ قرار حظر كتب مارتن لوثر ومؤيديه، ومنذ تلك الحظة وضعت السلطات الدينية رجال حرس متحمسين لمنع دخول الكتابات اللوثرية والمبشرين اللوثرين لاسيما في الموانئ الشمالية ولكن لم يحققوا نجاحاً تاماً فبعد عقْد من الزمن أضيفت أسماء جديدة غير معروفة لأكثر الإسبان إلى قائمة المصلحين البروتستانت الذين وجدت كتاباتهم طريقها إلى إسبانيا⁽¹⁸⁾. وفي فترات مختلفة اتخذت اجراءات اخرى تميل إلى الغاية نفسها مدعومة بواسطة التعصب الهيجي الاكثر قسوة، ففي 8 أيار 1526 أصدر البابا كليمنت السابع Clement VII (1523-1534) مرسوماً بابوياً يمنح بموجبه السلطة لنظام رهبان (الاخوان الصغار) التابع للقديس فرنسيس (1181-1226) مؤسس الاخوانية الرهبانية الفرنسيسكانية بأن يعقد المحكمة التكفيرية (التوبة) لإعفاء رهبانها من تهمة اعتناق اللوثرية إذا قاموا بأداء القسم بأنهم ضد ذلك المذهب إلى الابد. إن تلك الاجراءات لم تكن مجرد اجراءات احترازية أو عرضها فقط من اجل العرض والمظهر كأحترام الكاثوليكية لأن مبادئ مارتن لوثر كانت تقرأ وتصدّق في إسبانيا⁽¹⁹⁾.

كان شارل الخامس المحرض الحقيقي لسياسة قتل المهرطقين الذي نظر للوثرية كأنها وباء اجتاح المملكة ووصل حتى العاصمة بلد الوليد، لذلك كتب عام 1554 عندما كان في الاراضي المنخفضة رسالة إلى ابنته الوصية خوانا Joana في إسبانيا يطالب فيها بأن "يجب أن لا يكون هناك اي شيء يقف في طريق التطبيق الفوري لعقوبة الاعدام لجميع المهرقين، هؤلاء محرضين على الانشقاق واعمال الشغب والاضطرابات في الدولة وجميعهم سوف يحكم عليهم على انهم مذنبون بالتمرد ولا يمكن توقع اي رحمة لهم"⁽²⁰⁾، وهذا يوضح بأن الهرطقة بالنسبة له اساءة للرب وضد أمن الدولة. لذلك كان اعضاء محكمة التفتيش الإسبانية متحمسين جداً في بحثهم عن مؤيدي الدين الجديد حتى انهم شعروا بالشك بـ(خوان دي ابيلا) رجل الدين الموقر الذي كان يطلق عليه لقب رسول الاندلس لمكانته الاخلاقية والدينية، وكان يؤكد في مواضعه على التقوى وتطهير الحياة ويفسر الكتاب المقدس بشكل واضح وبسيط ولا يدخل في تعقيدات لاهوتية فضلاً عن رفض المسائل الغامضة والحمقاء التي تطرح في المدارس الدينية. فأثارت اراءه الدينية بعض رجال الدين الذين شعروا بالغيرة من شهرته، وفي عام 1525 أرسلوا بعض القضايا التي طرحها إلى محكمة التفتيش فظفروا لها على أنها لوثرية فحُكم عليه بالسجن وكان من الممكن اعدامه لولا تدخل مانريك من اعضاء محكمة التفتيش الإسبانية الذي كان يحترم ابيلا بشدة واستطاع حمايته واطلاق سراحه ولكن هذا لم يمنع وضع اعماله في قائمة اكتب المحرمة. ومن الشخصيات العلمية التي تعرضت لقمع واضطهاد محكمة التفتيش الإسبانية بيدرو دي ليرما استاذ الدراسات اللاهوتية ومستشار جامعة الكالا Alcalá وابن اخيه الاستاذ لويس دي كادينا وخوان دي بيركارا مؤلف كتاب (اللغات المتعددة)⁽²¹⁾.

والجدير بالذكر ان هناك حادثتين كان لهما الأثر الشديد في توجيه انتباه الإسبان نحو قضية مارتن لوثر ومنحهم انطباعاً مفضلاً للوقوف إلى جانب آرائه، الأولى: الخلاف بين شارل الخامس والبابا كليمنت السابع عام 1527 بسبب نهب روما، ورغم أن شارل الخامس اعطى اوامره بتأجيل الاحتفالات العامة بمناسبة ولادة أبنه فيليب كعلامة تدل على حزنه الشديد على تلك الحادثة إلا انها تعد انتصاراً احرزته إسبانيا ومنحت فرصة لتأليف الاغاني الساخرة من البابا واسقف روما(22). اما الحادثة الثانية: تقديم الاعتراف البروتستانتي للأيمان أول اعلان رسمي للمبادئ اللوثرية إلى المجلس الإمبراطوري في اوغسبورك عام 1530 بحضور شارل الخامس وعدداً من النبلاء ورجال الدين الإسبان، وكان لهذه الحادثة تأثيراً كبيراً في تبديد الفكرة المزيفة الخاطئة التي اتخذت تجاه اراء مارتن لوثر. ففي مجلس فورمس عام 1521 تعرض مارتن لوثر للإهانة والشتائم من قبل الإسبان الذين رافقوا شارل الخامس في المجلس، بينما في مجلس اوغسبورك عام 1530 كان هناك اختلاف ملحوظ في سلوكهم فشخصيات بارزة رافقت شارل الخامس من بينهم كاهن اعترف شارل الذي اعترف بأنهم حتى هذه اللحظة تعرضوا للخداع في الحكم على اراء مارتن لوثر لأنه لم يكن مثلما سمعوا عنه(23).

كما أن الفونسو بالديس Alfonso Valdes سكرتير شارل الخامس قام بأجراء لقاءات ودية وسرية مع المصلح ميلانكثون صديق مارتن لوثر، وقد اطلع بالديس على اعتراف اوغسبورك قبل تقديمه إلى المجلس وكان اعتراضه الوحيد كتابية الاعتراف باللغة الالمانية التي كانت قاسية جداً لخصومه الإسبان. واعترف بالديس بأن هناك رأي شائع بين الإسبان وهو أن لوثر واتباعه لا يؤمنون بالرب والثالوث المقدس والمسيح والسيدة العذراء فضلاً عن اعتقادهم بأن خلق شخص لوثري حتى الموت هو عمل مساوي لقتل عدو تركي لأن كلاهما كافر بالمسيحية، وازداد بالديس بأنه استخدم كل تأثيره بهدف ابعاد شارل الخامس عن هذه الانطباعات المزيفة، إن هذه الوقائع لم تتملص من مراقبة محكمة التفتيش فبعد عودة بالديس إلى إسبانيا أنهم باللوثرية بعد العثور على رسائله التي كشفت علاقته الودية مع المصلحين الالمان واعتناقه الآراء الاصلاحية. وان الرأي الشائع يشير إلى أنه اعتنق اللوثرية في المانيا عندما كان مرافقاً لشارل الخامس عام 1535 والذي ارسله إلى نابولي ليعمل سكرتير لنائب الملك، ولكن الحقيقة إن عقله امتلأ بالأفكار القيادية للمذهب اللوثرية قبل مغادرته إسبانيا والدليل على ذلك كتابه (نصائح لمفسري الكتاب المقدس) الذي تداول سراً بين معارفه وقد وجدته محكمة التفتيش بعد أن ارسله على شكل رسالة الى صديقه بارتولومي كاررانتا كبير اساقفة طليطلة الذي أعتقل لاحقاً. فشكلت هذه الرسالة اداة من اكثر الادوات خطورة في تثبيت التهمة ضد بالديس الذي غادر إسبانيا في فترة مبكرة لكنه ساهم في نشر الآراء الاصلاحية في بلاده بواسطة كتاباته التي نشر بعضها باللغة الإسبانية بعد استقراره بعيداً عن اسبانيا(24). ومن الشخصيات المهمة التي اعتنقت اللوثرية بيريبس Vitves كاهن شارل الخامس الذي اصطحبه معه في زيارته إلى المانيا وكان متعلقاً به بشدة ويسمع إلى مواعظه، وكان بيريبس يفضل كتابات ايراسموس وله علاقات مع بعض المصلحين وعلى هذا الاساس اعتقل في اشبيلية وحكم عليه بالسجن لمدة اربع سنوات، وفي عام 1537 نجح شارل الخامس في الحصول على قرار بابوي لأطلاق سراحه وتخليصه من الألام الباقية التي سيواجهها بعد ان يقسم على التبرئة من الهرطقة اللوثرية(25). ولا بد من الاشارة إلى اولئك الذين رافقوا بلاط الإمبراطور شارل الخامس في المانيا وحضروا افتتاح مجلس ترنت عام 1546 كانوا من اوائل الإسبان الذين اتصلوا باللوثرية مباشرة فنظروا الى مارتن لوثر على أنه مجرد مصلح وكانوا يفضلون افكاره فأصبحو ملزمين بقراءة الكتب اللوثرية لمكافحة الاخطاء فيها(26).

نلاحظ اعلاه بأن هذه المواقف التي صدرت من شخصيات كاثوليكية مهمة في القرن السادس عشر اي في عصر لم يجرؤ فيه احداً على تنفيذها، تعد انتصاراً كبيراً للقضية اللوثرية، كما نلاحظ أيضاً انه على الرغم من شعور شارل الخامس بالاستياء من اجراءات محكمة التفتيش القمعية تجاه واعظه المفضل بيريبس إلا أنه استمر في دعم محكمة التفتيش كماكنة لأستعباد وظلم رعاياه.

اصدر المجلس الإمبراطوري عام 1530 قراراً إلى جميع اعضاء محاكم التفتيش الإسبانية في كافة انحاء المملكة يبلغهم فيه بأن كتابات مارتن لوثر شقت طريقها إلى إسبانيا تحت اسماء مزيفة على شكل مذكرات وملاحظات تُرفق مع اعمال مؤلفين كاثوليك، لذلك يتطلب منكم أن تضيفوا إلى القرار السنوي للشجب فقرة متعلقة بمثل هذه الكتب وفحص جميع المكتبات بهدف اكتشافها مما دفع المسؤولين في محاكم التفتيش للقيام بزيارات متتابعة للمنازل. وفي عام 1531 منح المجلس الإمبراطوري السلطة لمحكمة التفتيش لإصدار حكم الحرمان الكنسي ضد الذين يعرقلون عمل تفتيش المنازل، ويشمل هذا الحكم الذين يحتفظون بكتب مارتن لوثر وأي شخص لا يُبلغ عن الذين يتداولون تلك الكتب فضلاً عن القساوسة في الابرشيات الذين لم ينشروا هذا القرار في المدن والقرى، وعلى جميع الاساقفة وكهنة الاعتراف والوعاظ ملزمين لحدث الناس الذين يسمعون لهم بأنهم يتعرضون إلى ذنب مميت إذا لم يبلغوا عن انفسهم والآخرين، وقد تضمن القرار فقرات مختلفة للهرطقة اللوثرية تصل إلى ادنى انحراف عن المراسيم الكنسية وأشترط على المخبرين الابلاغ عن اي شخص يهتم بتعليم مبادئ مارتن لوثر(27).

إن من الضروري الاعتراف بأن هؤلاء المسؤولين في لهفتهم وحماهم لملاحقة اللوثريين والمبالغة في ادنى انحراف عن الكاثوليكية يرتكبون خطأ كبيراً لأنهم أحياناً يكونوا أداة لنشر الأفكار اللوثرية التي يسعون لاجتثاثها، مثلاً أصدرت محكمة التفتيش في اسبيلية قراراً باعتقال رجالاً أنهم يعتقد بعدم وجود أي تطهير من الذنوب إلا بدم المسيح واعترف بذلك أمام المحكمة فهم إن هذا الاعتقاد يمثل اهانة للأباء المقدسين لذلك تراجع عنه. لكن هذا لم يقنع أعضاء المحكمة الذين أخبروه بأن مجرد اتخاذه فكرة خاطئة واحدة يترتب عليه تورطه في أخطاء كثيرة لأن إذا لم يكن هناك مطهر فإن البابا الذي أعلن عكس ذلك يعني أنه ليس معصوماً من الخطأ وحتى المجالس الدينية خاطئة وهكذا بالنسبة لباقي قرارات المجامع الكنسية فحاول الرجل اقناعهم بأنه لا يحمل تلك الأفكار مطلقاً لكن المحكمة أصدرت حكماً بسجنه حتى يتراجع عن أفكاره، وكانت النتيجة قيادته بصورة جادة للإيمان بتلك الأفكار فخرج من محكمة التفتيش لوثرياً حقيقياً⁽²⁸⁾.

في مثل هذا المناخ المليء بالخوف والشك فإن الجدالات العلمية تتم مراقبتها لمنعها فظهر قيد جديد على الحرية، وإذا كان الديوان المقدس لا يتدخل بصورة مباشرة بالمؤلفات الدنيوية لكن تأثيرات نشاطاته لا يمكن أن تقتصر على المجال اللاهوتي فقط وهو من الناحية الفنية يفترض أن يكون المجال الوحيد الذي يختص به الديوان. فنتيجة لذلك أصبح المؤلفين للأعمال غير اللاهوتية يميلون إلى ممارسة رقابة ذاتية على أنفسهم لكي يجعلوا كتاباتهم خالية من أي تعبير يمكن أن يضل الجهلاء، فأصبحت هناك روح جديدة للحذر والتي بصورة حتمية منعت جدلاً واسع النطاق تميز به حكم الملوك الكاثوليك⁽²⁹⁾.

ولابد من ذكر حقيقة مهمة عن دور الإسبان الذين أعتنقوا اللوثرية خارج إسبانيا ولاسيما الطلبة الذين يدرسون في جامعات اجنبية فقد ساهموا بشكل كبير في نشرها بين أبناء بلدهم، وفي مقدمتهم الأخوة خايمي وفرانثيسكو وخوان من عائلة اينثيناس من مدينة بورغوس في قشتالة القديمة الذين غادروا إلى جامعة لوفين Louvain في بلجيكا للدراسة فيها وهناك تأثروا بالأراء البروتستانتية وعملوا على نشرها بين الطلبة الإسبان. وبعد جهود متواصلة تمكن فرانسيسكو من تنفيذ مشروع ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإسبانية الذي طبع في أنتويرب بعنوان (الميثاق الجديد) ووصلت نسخة منه إلى إسبانيا والبرتغال⁽³⁰⁾. ووفقاً لذلك أصدر البابا يوليوس الثالث Julius III (1550-1555) في عام 1550 مرسوماً فيه بأن جميع الكتب المهرطقة التي تضم كتباً مقدسة باللغة الإسبانية وضعت في قائمة الكتب المحرمة، وبناءً على رغبة شارل الخامس قامت جامعة لوفين بسحب تلك الكتب وحرقها⁽³¹⁾. وعندما كان الأمير فيليب يحكم إسبانيا خلال فترة غياب والده أصدر أوامره بفحص جميع الكتب التي تدخل إلى المملكة ومصادرة جميع الكتب المقدسة والمترجمة، فضلاً عن اتخاذ إجراءات قاسية ضد أي شخص يحتفظ بها وبدون استثناء حتى أعضاء الجامعات والأديرة. وفي الوقت نفسه منع استيراد هذه الكتب من خلال تعيين موظفين في الموانئ البحرية والحدود للحيلولة دون دخول مثل هذه الكتب إلى المملكة، ومنح السلطة لهؤلاء الموظفين لتفتيش البضائع التي تصدر إلى إسبانيا وكل شخص يروم الدخول إليها. من الممكن افتراض إن هذه الإجراءات تشكل حاجزاً لا يمكن التغلب عليه ضد تقدم التنوير في إسبانيا ولكن العطش إلى المعرفة لا يمكن مقاومته، وإن الطغيان عندما يبلغ حداً مفرطاً فإنه لا بد أن يوحى لضحاياه بالجسارة والعبقرية. فالكتب التي كان يرسلها الإسبان في المنفى إلى بلادهم ظلت لفترة من الوقت في جنيف لا يمكن إرسالها بسبب الإجراءات الحدودية المتشددة، ولم يحاول أولئك الإسبان المغادرة لنقلها عبر جبال البرانس لإيصالها إلى المملكة ولكن في النهاية تمكن خوليان إيرناند من مدينة بيليا بيردا من تنفيذ مهمة نقل الكتب إلى إسبانيا. فبعد اعتناقه اللوثرية في ألمانيا سافر إلى جنيف وعمل كمسرف ومصحح للطباعة، وفي عام 1557 كُلف بمهمة نقل الكتب إلى إسبانيا إذ تم تهيئة صندوقين كبيرين مملوئين بتراجم الكتاب المقدس والكتب البروتستانتية الأخرى باللغة الإسبانية، وقام بنقلها براً بعد أن استطاع التملص من عيون المراقبة على النقاط الحدودية فوصل إلى اسبيلية ونجح في توزيع الكتب بين اصدقاءه في مختلف مدن المملكة⁽³²⁾.

إن هذه الظروف ساعدت على تقدم الإصلاح الدين في المدن الإسبانية ولاسيما اسبيلية التي كانت أكثر المدن تعرضاً لتغلغل الأفكار الإصلاحية كونها مركزاً للتجارة الدولية، وكان رودريغو دي بالير من النبلاء الأثرياء المحرك الأول للإصلاح والذي كرّس نفسه لدراسة ونشر الآراء اللوثرية بين أبناء اسبيلية ومن الشخصيات الأخرى التي ساهمت في نشر الدين الجديد والتي كانت تتبوأ مناصب دينية وسياسية مهمة الواعظ خوان خيل (الدكتور ايجيديوس) الذي رشحه شارل الخامس عام 1550 لأشغال منصب اسقفية توروسا في كاتالونيا، وكارثيادي أرياس الذي يعود إليه الفضل الكبير في نشر المبادئ اللوثرية في الأديرة وقسطنطين دي لافوينتي وغيرهم من الشخصيات التي ساهمت عام 1558 في انشاء كنيسة بروتستانتية في اسبيلية حيث بلغ عدد البروتستانت (800) شخص من بينهم رهبان وراهبات اعتقلوا جميعاً من قبل محكمة التفتيش وحكم عليهم بالإعدام حرقاً. فضلاً عن تدمير معبدتين للبروتستانت في منزل اليونورا دي بيبيرو وايزابيل دي باينا⁽³³⁾.

أما مدينة بلد الوليد فإن أول دخول لعقيدة الإصلاح فيها كان على يد فرانسيسكو سان رومان الذي كان يعمل في التجارة مع الأراضي المنخفضة والمانيا وهناك اطلع على الآراء اللوثرية واعتنقها، وبعد عودته إلى إسبانيا القي القبض عليه من قبل بعض الرهبان الذين وجدوا معه كتب لوثرية ومنشورات ساخرة ضد كنيسة روما، فأصدرت محكمة التفتيش في بلد الوليد حكماً بإعدامه حرقاً عام 1544. والجدير بالذكر أن المبدأ الاصلاحى دخل إلى بلد الوليد قبل اعتراف رومان باللوثرية وذلك لأن اتباع المذهب الجديد لم يعلنوا عنه بل احتفظوا به في قلوبهم ويتحدثون عنه بحذر شديد إلى اصدقاءهم الواثقين منهم فقط، ولكن حادثة اعدام رومان زالت هذا الخوف والحذر وما مضيت سنوات قليلة بعد استشهاد رومان حتى شكلوا انفسهم في كنيسة يجتمعون سراً لغرض العبادة والتعليمات الدينية. وكان دومينغودي روكساس اول حامي للبروتستانت في بلد الوليد إذ كانت له علاقات جيدة مع النبلاء الكبار في المملكة بحكم نسبه لعائلة عريقة، والدكتور اوغستين دي كاتاليا الواعظ ومسؤول الصدقات للإمبراطور شارل الخامس وخطيب المنبر الاول في إسبانيا الذي كان من المدافعين عن الكنيسة البروتستانية⁽³⁴⁾.

وكما هو الحال في اشبيلية فإن عقيدة الإصلاح اخترقت الاديرة في بلد الوليد فقد اعتنقها عدد كبير من راهبات كنيسة سانتاكلارا والنظام الرهباني للقديس بيلين، وكانت الراهبات اللواتي تحولن إلى اللوثرية من النساء العابدات اللواتي كرسن انفسهن للأعمال الخيرية. لكن رغم تقدم اللوثرية في بلد الوليد فإن محكمة التفتيش نجحت في اجتثاث كنيستها البروتستانية، واصدرت احكاماً قاسية ضد المهرطقين وصلت الى درجة حرقهم وهم احياء ومصادرة كل مقتنياتهم. وانتشرت الآراء البروتستانية في كل اتجاه حول بلد الوليد في المدن ليون وتورو وثامورا وبالينثيا وقشتالة القديمة وسوريا حتى لوغرونو على حدود ناباري وطليلة وغرناطة ومورثيا. اما في اقليم اراغون شمال شرق إسبانيا شكل البروتستانت مستوطنات في ساراغوسا وإبويسكا وبالياسترو ومدنا أخرى، وان السبب وراء انتشار البروتستانية في مدن اراغون هو اقترابها من مدينة بيرن الفرنسية التي سكنها بروتستانت (هيجنوت) وكان اغلبهم يعبر جبال البرانس وينتشر في مدن اراغون لمزاولة التجارة وفي الوقت نفسه وجدوا فرصة سانحة لنشر الكتب الدينية ومبادئ البروتستانية بين سكانها، وعندما اتخذت اجراءات عنيفة لسحق الاصلاح في اسبانيا فإن الجزء الاكبر من سكان بيرن الفرنسيين استطاعوا التقهقر من اراغون إلى بيرن بدون صعوبة وأخذوا معهم إسبان اراغون الذين اعتنقوا البروتستانية وجدوا ملاذاً آمناً في بيرن هروباً من السلطة. بينما اخوانهم الإسبان الذين ظلوا في مدن اراغون فأنتهم أما سقطوا بأيدي مضطهدهم أو استطاعوا التملص بصعوبة شديدة وانتشروا في كافة انحاء اوربا⁽³⁵⁾.

يؤكد اكثر الكتاب الإسبان على أن الانتشار الواسع للآراء البروتستانية في شبه الجزيرة الأيبيرية كان ناتجاً عن إسبان متعلمين أرسلوا إلى خارج إسبانيا للرد على اللوثرين فإذا بهم يعودون إلى الوطن وعقولهم تأثرت بالهرطقة، وهو اعتراف غير مشرف للقضية التي دافعوا عنها وإلا لماذا لم يستطع هؤلاء المتعلمون الدفاع عن الكاثوليكية في الخارج بل تخلوا عنها واتخذوا اللوثرية ايماناً لهم؟ لأنهم اقتنعوا بأن المعتقدات الكاثوليكية ضعيفة ولا أساس لها من الصحة. وهذه الحقيقة تم تأكيدها بواسطة شهادة كتاب بروتستانت معاصرين الذين اشاروا بصورة خاصة إلى رجال الدين الإسبان الذين جلبهم الامير فيليب الثاني معه إلى انكلترا عام 1554 بمناسبة زواجه من الملكة ماري ثيودور Mary Tudor (1553-1558)⁽³⁶⁾. وقد كتب الكاتب ورجل الدين الانكليزي البروتستاني بيلكنغتون Pilkington: "من المسائل البارزة جداً إن رجال الدين الإسبان الذين أرسلوا إلى انكلترا بهدف قمع البروتستانية فأنتهم بمجرد عودتهم إلى إسبانيا ملأوا مختلف انحاء بلادهم بنفس حقيقة الدين البروتستانية التي كانوا اعداء لدودين لها"⁽³⁷⁾. ومن المحتمل إن هؤلاء الكتاب الانكليز شملوا في بياناتهم رجال الدين الإسبان الذين أعتقلوا بتهمة الهرطقة رغم انهم كانوا أعداء للوثرية أو كان لهم ميول للأيمان ببعض مبادئ اللوثرية المرتبطة بعقيدة التبرير بالأيمان التي يقصد بها بأن تطبيق الشريعة غير كافي للحصول على ملكوت الرب بل أن ذلك يتم بالأيمان ببشارة المسيح الذي ضحى بنفسه من اجل أمته، وهذه العقيدة أخذها مارتن لوثر فألقى الكثير من المراسيم الكاثوليكية التي ليس لها علاقة بالبشارة بل بالشريعة فهذه العقيدة أساس المذهب اللوثرى⁽³⁸⁾.

واعتماداً على هذه الحقائق يمكن تقدير الحد الأدنى الذي انتشرت فيه عقيدة الاصلاح (اللوثرية) في إسبانيا، وعدد الذين اعتنقوا هذه العقيدة حوالي (2000) شخص. ومن اجل تشكيل حكم على الميل الموجود في عقول الإسبان نحو عقيدة الاصلاح يجب علينا أن نأخذ بالحسبان ليس فقط عدد الاشخاص الذين اعتنقوا هذه العقيدة ولكن كذلك الصعوبات التي عرقلت تقدم تلك العقيدة، فنلاحظ ان مارتن لوثر وابتاعه في المانيا كانوا قادرين على إعلان عقيدتهم ونشر الكتب اللوثرية تحت حماية الامراء الذين يمتلكون السلطة ضمن اراضيهم المستقلة عن الإمبراطور شارل الخامس. كما أن المصلحين في اسكتلندا تمتعوا بميزة مشابهة تحت حماية الاقطاعيين، وأن انهيار العلاقة بين هنري الثامن ملك انكلترا (1509-1547) والبابوية بسبب قضية طلاقه من كاترين الاراغونية Catherine of Aragon (1485-1536) قاد إلى منح الشعب الانكليزي الكتاب المقدس بلغتهم وهذا لم يكن ممكناً قبل انهيار العلاقة بين الملك والبابا.

أما البروتستانت (الهيجنوت) في فرنسا لا يمكن القبض عليهم دون أوامر من القضاة الذين أحياناً يمتنعون عن تنفيذ الحكم بحق الهيجنوت أو يتساهلون معهم، وفي الدويلات الايطالية فرضت اجراءات مشابهة لمنع العنف الذي يمارسه القساوسة ضد اللوثريين. ولكن جميع هذه المزايا التي تمتع بها البروتستانت في اوربا لم يتمتع بها مؤيدي الاصلاح في إسبانيا حيث ادنى تعبير للرأي العام لصالح العقيدة الجديدة يُقمع فوراً من قبل محكمة التفتيش الإسبانية⁽³⁹⁾.

ثالثاً: سياسة قمع واجتثاث البروتستانتية في إسبانيا

واصل الملك فيليب الثاني (1556-1598) سياسة والده الإمبراطور شارل الخامس لقمع الاصلاحيين في إسبانيا والذي أشار إلى ذلك في وصيته، قائلاً: "إنني أرغب أولاً وقبل كل شيء بأن اوحى لأبني فيليب بالرغبة ليقوم بدعم محكمة التفتيش، وإنني اتوسل به وأوصيه واعطيه اوامر لمراقبة المهترطين بحرص ومطاردتهم وتدميرهم بصورة عنزية وبأقصى العقوبات التي يستحقها وبدون اي استثناء وبدون احترام صلواتهم ومناصبهم أو مكانتهم في المجتمع"⁽⁴⁰⁾. وفي 15 شباط 1558 أصدر البابا بولس الرابع Paul IV (1555-1559) قراراً موجزاً يجدد فيه جميع قرارات المجالس البابوية ضد المهترطين وعلن بأن هذا الأجراء ضروري بسبب التقدم اليومي السريع للهرطقة، وتولى فيرناندو دي بالديس (1483-1568) المفتش العام في محكمة التفتيش الإسبانية محاكمة المذنبين بالهرطقة وتنفيذ العقوبات التي حددتها الدساتير لاسيما التي تجرد المذنب من منصبه واملاكه سواء كان المهترقون (اساقفة، كبار اساقفة، بطاركة، كاردنالات أو ممثلين بابويين، بارونات، كونتات، ماركيزات، دوقات، امراء وملوك أو اباطرة). إن هذا القرار الكاسح والذي لم يُعفى منه إلا البابا أعلن عنه في إسبانيا وبموافقة فيليب الثاني رغم أن هذا القرار هدده شخصياً بالحرمان الكنسي والخلع من العرش بعد اثبات هرقطته. ووجه فيرناندو دي بالديس بالاتفاق مع المجلس الاعلى تعليمات إلى جميع محاكم التفتيش الإسبانية تنص على توجيه مسؤوليها للبحث عن كتب الهرطقة، وتنفيذ قانون الايمان auto-de-fe⁽⁴¹⁾ الذي تصدره محكمة التفتيش لإدانة المتهم ومعاقبته في حالة اكتشافهم كتب محرمة، وقد اصدر فيرناندو بالديس اول دليل إسباني للكتب المحرمة عام 1547 وانتجت نسخة منه في لوفين واعيد اصدارها عام 1551 وفي كل مرة يضاف جزءاً جديداً من الكتب المهترقة. وفي ايلول 1558 أصدرت الوصية خوانا التي تولت حكم إسبانيا خلال تواجد فيليب الثاني في انكلترا قراراً بتنفيذ عقوبات شديدة تصل الى الاعدام ومصادرة الممتلكات في حالة قيام اي شخص بإدخال كتب إلى البلاد بدون موافقة السلطات لطباعة المادة أو نشرها حتى اذا كانت مخطوطة، فضلاً عن بيع وشراء الكتب المحرمة، وإن سلطة منح إجازات النشر والطباعة وضعت في ايدي اعضاء مجلس قشتالة. وسُمح لمحكمة التفتيش بأنشاء نظام مماثل للرقابة من خلال دليل الكتب الممنوعة فأصدر فيرناندو بالديس في آب 1559 الدليل المحلي لمحكمة التفتيش الإسبانية مما ولد خوفاً واسع الانتشار من هذا القرار لأنه محاولة لتقييد قراءة الإسبان ومراقبة اسلوب كتاباتهم⁽⁴²⁾.

وفي 6 كانون الثاني 1559 أصدر البابا بولس الرابع قراراً إلى جميع كهنة الاعتراف بأن يفحصوا بدقة كلمات التائبين مهما كانت مناصبهم من ادنى طبقة إلى مرتبة الكاردينال أو الملك من اجل تحميلهم مسؤولية شجب جميع الاشخاص المذنبون بتهمة الهرطقة، وتهديد كهنة الاعتراف بتعرضهم إلى عقوبة الحرمان الكنسي في حالة عدم تنفيذ هذا القرار، و فقط البابا وكبير مفتشي محكمة التفتيش الإسبانية لهم الحق في اعفاء كهنة الاعتراف من هذه العقوبة. وفي اليوم التالي اعلن البابا بولس الرابع بأن هرطقة مارتن لوثر والمجددين انتشرت بشكل واسع في إسبانيا بحيث اصبح للبابا اسباب للشك حتى في اعتناق بعض الاساقفة للوثرية، وعلى هذا الاساس صدر قراراً بتفتيش جميع الاساقفة والبطاركة وكل رجال الدين في المملكة، ومن يحاول الهروب منهم يتم اعتقاله ونقله إلى روما ليأخذ جزاءه العادل. كما صدر مرسوماً بابوياً في كانون الثاني 1559 ينص على منح محكمة التفتيش الإسبانية سلطة اعلى من السلطة الدنيوية لمحكمة المدانين بالهرطقة دون السماح لهم بالتراجع او التخلي عن مبادئهم⁽⁴³⁾. ولم يكتف فيليب الثاني بهذه القرارات للبابوية فقد اصدر اوامره لتجديد القرار الملكي المؤجل الذي يمنح الحق لمخبري وجواسيس محكمة التفتيش في الاستيلاء على ربع ممتلكات المذنبين بالهرطقة بعد اعدامهم فنشر (2000) جاسوس ومخبر في مختلف انحاء المملكة فجشع الناس دفعهم للتجسس على الاخرين، وبناءً على التماس قدمه فيليب الثاني منح البابا بولس الرابع في 4 شباط 1559 صلاحية للمجلس الاعلى لتسليم المذنبين بالهرطقة إلى جهة دنيوية وليس دينية حتى إذا تراجعوا عن جريمتهم او يرغبون في الاعتراف بالخطأ. كما عمل على تعيين وكلاء ملائمين لمراقبة عمل بعض رؤساء محاكم التفتيش في اشبيلية وبلد الوليد الذين اتهموا بالتقصير في تنفيذ القوانين وتسترروا على البروتستانت والذي يُعد اشترك في جريمة الهرطقة، فضلاً عن معاقبة اشخاص مسؤولين يؤدون عملاً مزدوجاً مثلاً اسقف كاثوليكي يتستر على البروتستانت لأيمانه بأفكارهم⁽⁴⁴⁾.

وتعرض السجناء البروتستانت إلى ايشع اساليب التعذيب اثناء التحقيقات التي لا نهاية لها يخضعون فيها لمضطهدهم الذين يؤكدون لهم على اعفاءهم من الاعدام بشرط اعترافهم بهرطقة الاخرين وتوسلاتهم لأنقاذ حياتهم بالتوبة والاعتراف بالخطأ في اول فرصة ممكنة، لكن في نهاية الأمر فإن اعترافهم التي كانوا واثقين بأنها سوف تخدمهم لأطلاق سراحهم ستؤكد الشكوك وتثبت هرطقتهم. واحياناً يتم جلب سجين ويستقبله السجناء كواحد منهم وبعد ذلك تستخدمه السلطات كجاسوس بأفناعه أو بالتعذيب. كما يعتقل بعض البروتستانت لمدة سنتين او ثلاث خلالها تتدهور صحتهم وتنهار ارواحهم بسبب قسوة التعذيب ونتيجة لهذه المعاملة السيئة اهتز ثبات بعض البروتستانت حتى انهوا حياتهم بأستشهاد بطيء وسري، كما حصل لـ(كونستانيني دي لافوينتي) رجل الدين المفضل لدى شارل الخامس والذي اتهم بالهرطقة واعتقل عندها تعجب شارل الخامس، قائلاً: "اذا كان كونستانيني مهرطق فإنه رجل عظيم!" ولاحقاً عندما تم التأكيد للإمبراطور بأن كونستانيني مذنب شعر بالحزن الشديد لكن رغم ذلك تعرض لأقسى انواع التعذيب في ززانة تحت الارض لمدة سنتين حتى اصيب بمرض الدزنتري الذي انهي حياته(45). ويهدف تغطية نفقات هذه الحملة الكاثوليكية ضد المهرطقين، صُدر مرسومًا بابويًا بناءً على التماس قدمه رؤساء محاكم التفتيش الإسبانية ينص على منح تلك المؤسسة ايرادات مالية كنسية تساعدها على تنفيذ مهامها نتيجة التقدم المخيف للهرطقة اللوثرية في إسبانيا تحت حماية العديد من الاثرياء واصحاب النفوذ وحتى بعض رجال الدين الكاثوليك، مما يتطلب زيادة عدد المفتشين وتوزيعهم في مختلف انحاء المملكة وتهيئة عدد كافي من الخيول لمتابعة ومطاردة المذنبين الهاربين، فضلاً عن وجود عدد كبير من السجناء لا يمكن تغطية تكاليف طعامهم، لذلك منح البابا محكمة التفتيش الإسبانية إعانة قيمتها (100000) دوقية تُفرض على كل الايرادات الكنسية في إسبانيا. وقد شعر رجال الدين الكاثوليك بأزعاج شديد من الضريبة التي فرضت على دخلهم النقدي لتمويل محكمة التفتيش ولاسيما بعد مطالبة الاخيرة بالاستعانة بقوات مسلحة ضد بعض رجال الدين الذين عارضوا هذا التمويل(46).

تستند سياسة فيليب ومحكمة التفتيش الإسبانية على إثارة الرعب في عقول الأمة بأسرها ويعرضون لأوروبا مشهداً لحماهم للإيمان الكاثوليكي والمراقبة الشديدة للهرطقة من خلال تطبيق قانون الايمان auto-de-fe الذي ادى احياناً إلى حالات تراجع اجبارية للذين اعتنقوا البروتستانية. ففي 21 أيار 1559 شهدت بلد الوليد اول استعراض لتنفيذ قانون الايمان بحضور الوصية خوانا وعدد من نبلاء وسيدات المجتمع الإسباني إذ تم حرق عدداً من البروتستانت بعد ارتدائهم رداء الخزي والعار (السانبينيوتو)، أما التنفيذ الثاني حدث في 8 تشرين الاول 1559 بحضور فيليب الثاني بعد عودته من الاراضي المنخفضة فأشرف على حرق 13 بروتستاني، ونلاحظ إن فيليب الثاني يكون اكثر الاحيان غائباً عند تنفيذ احكام محكمة التفتيش ضد المهرطقين(47).

اما في اشبيلية فقد شهدت تنفيذ قانون الايمان الاول في ايار 1560 والثاني في 22 كانون الاول 1560، إذ حُرق 14 شخص وهم احياء لأن هذا القانون ينص على ان التائبين يعدمون حرقاً بعد الشنق أما بدون توبة فيحرقون احياءً. وثلاثة اشخاص غائبين تم حرق دمي تمثلهم، و34 خضعوا لعقوبات قاسية مثل السجن مدى الحياة سواء في السجون أو الديرية وإلباسهم رداء السانبينيوتو ومصادرة كل ممتلكاتهم والجد بالسوط(48). وفي طليطلة تم تنفيذ قانون الايمان في الاعوام 1560 و1565 و1571 إذ حُرق 45 شخصاً أتهموا بالبروتستانية اللوثرية واليهجوتية وهذا يوضح ازدياد عدد معتنقي المذاهب البروتستانية وتنوعها في إسبانيا. وفي الفترة 1557-1563 شهدت غرناطة وبالينثيا ومورثيا تنفيذ قانون الايمان إذ تعرض البروتستانت فيها إلى ايشع اساليب التعذيب والاعدام حرقاً(49). اما ساراغوسا التي كانت تضم عدداً كبيراً من البروتستانت الفرنسيين الذين غادروا مدينة بيرن واستقروا فيها لغرض التجارة فضلاً عن ايوبيسكا وبارباسترو. فقد قام مسؤولي محكمة التفتيش بمتابعتهم لأن بيرن تقع قرب الحدود وتسهل المرور إلى إسبانيا. وقد ذكر في سجلات المجلس الاعلى لمحكمة التفتيش، كما يلي: "إن سفير الملك فيليب الثاني في فيينا ذكر للمفتش العام بأن البروتستانت الكلفانيين يهنئون انفسهم بمناسبة اتفاق سلام بين فرنسا وإسبانيا لأنهم كانوا يأملون أن مذهبهم الكلفاني سوف يحرز تقدماً في اسبانيا والبرتغال لا يقل عن تقدمه في البلدان الاخرى. بشرط ان العدد الاكبر من الإسبان الذين اعتنقوا الكلفانية يكون لهم الحرية في الاتصال بأراغون من خلال بروتستانت مدينة بيرن، ويتم ارسال كتب مهرطقة من باريس توضع بطريقة ذكية في براميل يسهل دخولها من خلال موظفي الكمارك"(50). فوصلت معلومات لمسؤولي محكمة التفتيش عن طريق احد التجار حول وصول الكتب اللوثرية باللغة القشتالية متوجهة نحو إسبانيا. فصدرت الاوامر بمراقبة الحدود الفرنسية- الإسبانية في كاتالونيا وارغون وناباري واعتقال البروتستانت وحرق كتب الهرطقة. واصدر فيليب الثاني قراراً يمنح محكمة التفتيش السلطة لإعدام ومصادرة ممتلكات اي شخص ينقل الخيول من إسبانيا إلى فرنسا وبالعكس بصورة غير شرعية بعد ان كان سابقاً يحاكم في المحاكم الاعتيادية، وبذلك وجد فيليب الثاني وسيلة فعالة لمنع دخول كتب الهرطقة من فرنسا إلى إسبانيا على ظهر الخيول ولاسيما بعد الصراع الدموي بين البروتستانت والكاثوليك في فرنسا، وأرسل إلى بيرن مرسومًا بابويًا بأعتقال البروتستانت الفرنسيين لتنفيذ الاجراءات الجديدة. وقد مارست محكمة التفتيش في مدينة لوكرونيو شمال إسبانيا أبشع

اساليب التعذيب والاعدام حرقاً ضد البروتستانت في عام 1558، ومراقبة مناطق الحد الفرنسي- الإسباني ومنع دخول كتب الهرطقة عن طريق البحر. اما مقاطعة كاليثيا فلم تنشأ فيها محكمة التفتيش لعدة سنوات ولكن بعد أن أصبحت جزءاً من مملكة ليون خضعت لمحاكمة تفتيش قشتالة، ورغم الاحداث الكثيرة التي شهدتها فيما يخص اليهود والمسلمين والبروتستانت فأنها تملصت من حالات البؤس والقمع لمحاكم التفتيش. وشدد فيليب الثاني المراقبة على موانئ كاليثيا بحكم موقعها في غرب إسبانيا على المحيط الاطلسي فيمكن من خلالها ادخال الكتب البروتستانية إلى المملكة، فصدرت الاوامر الملكية بأنشاء محكمة التفتيش في كاليثيا وهذا دليل واضح على انتشار مبادئ الإصلاح الديني في مختلف انحاء إسبانيا من المحيط الاطلسي غرباً حتى البحر المتوسط شرقاً وجنوباً. ولكن رغم ذلك لم يكن للمبادئ الاصلاحية اي اثر يمكن ايجاده إلا في السجلات السنوية لمحكمة التفتيش التي تحتفظ بها لتبرير جرائمها ولإثارة خوف المسيحيين الكاثوليك لأبعادهم في المستقبل عن اي محاولة تهدف إلى نشر البروتستانية، إذ بلغ عدد البروتستانت الذين أعدموا حرقاً (14188) ضحية منذ حكم فيليب الثاني حتى حكم فيليب الخامس (1700-1746) (51). إن السؤال الذي يثير جدلاً هامياً: هل أن اجنثاات البروتستانية وقمع الإصلاح الديني في إسبانيا يشكل ضرراً على مستقبل الأمة الإسبانية وثقافتها؟

اصبحت إسبانيا رغم ما تمتلكه من مستعمرات وموارد مالية بلاداً راكدة وبدأت بالتراجع. ومن المستحيل إرجاع اسباب ذلك إلى فقدان قوتها السياسية والاقتصادية في منتصف القرن السادس عشر بعيداً عن اجراءاتها القمعية ضد الاصلاح الديني. فنجد إن إيطاليا عاشت اوضاعاً سياسية واقتصادية مختلفة جداً عن إسبانيا لكنهما اصبحتا تقريباً في الحالة ذاتها بسبب متابعتهم لإجراءات مشابهة لقمع الاصلاح الديني. كما إن الوضع السياسي لفرنسا في الفترة المشار لها كان مماثلاً جداً للوضع السياسي في إسبانيا، فالنبلاء جردوا من قوتهم الاقطاعية في كلا البلدين إذ إن البرلمان الفرنسي اصبح أداة غير فعالة في ايدي الملك مثله مثل الكورتيس الإسباني، وكلتا المملكتين (فرنسا وإسبانيا) أصبحتا متعبتين ومستهلكتين نتيجة الحروب التي اندلعت لمدة اكثر من نصف قرن، ولكن القرارات البابوية التي أصدرها الفاتيكان لم تُنفذ بكل حرية في فرنسا مثلما حدث في الجزيرة الأيبيرية. ورغم إن الاضطهاد أدى إلى هروب عدداً كبيراً من البروتستانت الفرنسيين لكن لم تكن هناك محاكم تفتيش في فرنسا لهذا ظلت آثار الاصلاح الديني على قيد الحياة فيها، واستمرت فرنسا تحتل مكانة بارزة بين القوى العظيمة في اوربا (52). اما إسبانيا فقد جُردت من حرياتها وعاشت وضعاً داخلياً مضطرباً بسبب حماسها المتعصب وغير المتسامح للدين الكاثوليكي. وعندما كان الكورتيس يرغب في إلغاء محكمة التفتيش فأنها اشارت إلى ان وجودها كمؤسسة مستقلة عن سلطة الكورتيس، ولكن الاستبدادية المدنية والدينية حليفان طبيعيين فقامت محكمة التفتيش بتعزيز نفوذها بسحق جميع المقترحات الهادفة إلى تحسين إدارة الدولة وخلق صوت الشكوى ومحاربة الآراء الليبرالية وكل تأمل أو التفكير في السياسة باعتباره هرطقة أو انحراف عن الدين الصحيح. وكان هدف مسؤولي محكمة التفتيش ورجال الكنيسة الحاكمين ايقاف تقدم المعرفة وعلى هذا الاساس مارسوا التفتيش القاسي جداً والمراقبة المتواصلة للصحافة والجلسات التعليمية ونشر قوائم الكتب المحرمة بين فترة واخرى والتي تضم التراجم باللهجات الإسبانية المحلية لكتاب المقدس، وكتابات المصلحون والكاثوليك الرومان الذين احتوت كتاباتهم على ادنى درجة من الحرية في عواطفهم وشجعت روح التساؤل والاستقصاء (53).

إن الاهتمام بالدراسات اللاهوتية في إسبانيا أدى إلى مواصلة قمع الاصلاح فقد احتفظ بهذه الدراسات من قبل افراد بشكل سري لأنهم كانوا مقتنعين بأن البروتستانت بارعون في تفسير الكتاب المقدس، ونشر هؤلاء الافراد هذه الكتابات كلياً أو جزئياً على أنها من تأليفهم ويشمل ذلك الكتاب المقدس الذي احتوى على ملاحظات كتبها رجال دين من سويسرا فبعد اجراء تصحيحات للترجمة تم طباعتها في سالامانكا تحت رقابة شديدة ولكن بعد اكتشاف المؤلفين الحقيقيين (البروتستانت) وضعت الترجمة في قائمة الكتب المحرمة. وبعد إبعاد علماء اللاهوت الإسبان عن حقول الاستقصاء أو المناقشة اهتموا فقط بدراسة اللاهوت المدرسي والسفسطائي (المغالطة المنطقية عبارة مقنعة عند قراءتها لأول مرة ولكن عند التمعن بها يظهر انها خاطئة)، وامتد الخطر ليشمل فروع العلم حتى البعيدة عن الدين فضلاً عن الكتب ذات المواضيع العامة التي ألفها أو ترجمها بروتستانت (54). وفي تشرين الثاني 1557 أصدر فيليب الثاني قراراً ينص على عودة جميع الإسبان الذين يدرسون او يدرسون في الخارج إلى إسبانيا في غضون اربعة اشهر، وان الاستثناءات الوحيدة لأولئك الذين يدرسون في كليات بولونيا Bolgna وروما ونابولي في إيطاليا وCoimbra في البرتغال، ومستقبلاً لا يمكن لأي إسباني الدراسة في الخارج باستثناء هذه الكليات. إن انشقاق اسبانيا عن اوربا لم يكن كاملاً ابداً وعلى اي حال من المسائل التي لها اهمية إن من اصل 228 مؤلف علمي إسباني في بداية القرن السادس عشر 11% كانوا اساتذة في جامعات اجنبية و25% درسوا في خارج إسبانيا. وبعد عام 1560 اصبحت النسبة صغيرة جداً بحيث يمكن اهمالها، ففي جامعة مونبيلييه الفرنسية المتخصصة بالدراسات الطبية فأن

310 إسباني درسوا فيها خلال الفترة 1503-1558 وحتى عام 1565 درس فيها 14 إسباني فقط وبعد عام 1573 لم يسجل فيها اي إسباني (55).

وفي 17 آب 1627 صدر مرسوم بابوياً ينص على منع رجال الدين والبطاركة بأستثناء المفتش العام لمحكمة التفتيش من امتياز قراءة الكتب المحرمة، ومُنع المؤرخين الإسبان من قول الحقيقة من خلال تهديدهم بأقصى العقوبات في حالة كتابة عمل يسخر من السياسة والدين في شبه جزيرة ايبيريا فأصبح الإسبان يحملون تصورات خاطئة جداً عن تاريخهم وجاهلين بشدة بشؤون البلدان الأخرى. لم يكتفِ مسؤولي محكمة التفتيش بتسليط رقابة شديدة على المطبوعات بل يقتحمون المنازل ويعتدون على مكتبات المثقفين ووفقاً لرغبتهم يتركون او يحملون كتباً مشكوك بأنها تحمل موضوعاً خطيراً، ومراقبة الجامعات والمجالس التعليمية الأخرى. وبسبب ميول بعض اساتذة جامعة سالامانكا لمناقشة الافكار الليبرالية منعوا من القاء المحاضرات، واوامر مائة اصدراها فيليب الثاني إلى اساتذة الاسكوريال تنص على دراسة الكتاب المنهجي المطبوع فقط وعدم طرح مواضيع اخرى. اما الفلسفة الاخلاقية فقد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بكل من الدين والسياسة بحيث انها لم تثر كراهية المدافعين عن الخرافة والاستبداد، وفي الحقيقة فأن محاولات ضعيفة شهدتها إسبانيا للتخلص من تلك العبودية المنحطة قام بها اساتذة الفلسفة الاخلاقية لكنها فُجعت من قبل محكمة التفتيش، وقد صدر قراراً ينص على تحريم دراسة الفلسفة الاخلاقية في جميع الجامعات. كما وضعت الفلسفة الطبيعية بفروعها المتنوعة تحت المراقبة الشديدة، فضلاً عن النظام الكوبرنيكوسي الذي كان لا يزال يُدرس في إسبانيا على أنه مجرد فرضية. وأهملت دراسة الطب وفُرض على الاطباء ليس الادلاء بالقسم على ممارسة الطب بكل صدق ونزاهة بل الالتزام بالدفاع عن التصور الطاهر المعصوم من الخطأ للسيدة العذراء (56).

إن الاحداث الكبرى التي ميزت عهد شارل الخامس ببقية الحماس ساهمت في تطوير عبقرية الأمة الإسبانية ولهذا تم اعطاء دافع للعقل لمواصلة العمل لفترة طويلة على القضية التي أبعد عنها، ولكن صفة العصر المنحط الذي عاش فيه الإسبان كانت صفة لها الاثر السيء حتى على المواهب القيمة في مجال الادب والفنون. وعندما بدأت عبقرية إسبانيا بالعودة مجدداً كان الخيال او التخيل المجال الوحيد الذي تُرك مفتوحاً لهم، وان الابداء الإسبان وكأنهم كانوا يرغبون في التعويض عن الفترة الطويلة التي ظلوا فيها مقيدين فبدأوا بوضع قواعد للذوق الجيد وتحرروا كلياً وتركوا لأنفسهم الباب مفتوح امام جميع حالات الانفراط في الخيال الجامح الذي جسده بلغة صعبة. وبالرغم من المواهب الجيدة التي امتلكها بعض الإسبان لكن لم يكن هناك رغبة أو ذوق للأدبيات، فالمحاضرات حول الفلسفة التجريبية توقفت بسبب قلة الجمهور والقراءة غير معروفة بأستثناء طبقة محدودة جداً من المتعلمين. وكل محاولة لإنشاء مجلة ادبية باءت بالفشل بسبب عدم اهتمام العقل العام وفرض الرقابة على المحادثات والاماكن التي يجتمع فيها الناس لقضاء وقت الفراغ (57).

ولا بد من القول ان زيادة الخرافات وعدد رجال الدين ومعيشتهم المترفة في إسبانيا قد واكبت نمو الجهل، إذ كانت البلاد تحت حكم الكنيسة ففي نهاية القرن التاسع عشر كانت إسبانيا تضم 9000 دير و200000 راهب فأصبحت ثروة الكنيسة لا تتناسب مع ثروة البلاد، فمثلاً كاتدرائية طليطلة تضم 600 قس يعيشون عيشة مترفة وقدرت إيرادات كبير الاساقفة فيها حوالي 100000 جنيه استرليني، فضلاً عن الاثاث والاوناني والبخاريف الثمينة جداً. ويحصل الرهبان المينديكيين Mendicant على مبالغ هائلة التي كان يدفعها الإسبان للقداسات والغفران، وكانت الحملات الصليبية تجلب دخلاً نقدياً منتظماً سنوياً 200000 جنيه استرليني إلى جلالة الملك الكاثوليكي الذي يحصل على هذا المبلغ بفرضه على الشعب، وإن المسألة التي لها اهمية مساوية لجمع هذا المبلغ هي اعتداء الخرافة على وقت السكان من خلال إقامة الاحتفالات العامة إذ كانت هناك 93 مناسبة تشهدها إسبانيا فضلاً عن المناسبات الخاصة بالمقاطعات والابرشيات واديرة واحتفالات مصارعة الثيران. وبسبب الاضطهاد وعدم التسامح الديني والحروب المتواصلة أهملت التجارة وجميع مصادر الثروة الوطنية فأصبحت إسبانيا التي تسيطر على ثلث مساحة العالم فقيرة جداً وانخفض عدد سكانها وبالمقابل ازداد عدد الشحاذين والمتشردين لعدم توفر فرص العمل. مما خلف تأثيرات سيئة على الاخلاق والوطنية الإسبانية، وطبيعياً يتميز الشعب الإسباني ببعض المزايا الجميلة التي يتميز بها اي شعب لكن الإسبان اصبحوا بمرور الوقت قساة ومتحفظين بسبب المشاهد البشعة لقرارات محكمة التفتيش التي استمرت لفترة طويلة جداً. كما شهدت إسبانيا حماية الجريمة بالمقدسات فاللصوص والعاهرات يحملون معهم صورة العذراء ويؤدون الصلاة ويقابلون كهنة الاعتراف، ويجد المجرمون القتل ملاذاً آمناً في الكنائس والاديرة عندها يهربون من العدالة فقد تُركت عدة جرائم بدون عقاب نتيجة للحصانة الممنوحة لرجال الدين. وكان الزنا شائعاً وان الذين اعتادوا على العيش في هذه الرذيلة لم يجدوا صعوبة في الحصول على اعفاء من الذنب، وقد سمحت قوانين الكاتدرائية في المدن بهذا التصرف فضلاً عن الرهبان في القرى مثلاً قساوسة الابرشية يعيشون مع نساء بصورة شاملة تقريباً بشرط عدم الاحتفاظ بأطفالهم من الزنا في منازلهم الخاصة بهم. وحتى الوقت الذي يبدأ فيه القساوسة بالحصول على

تاج اسقفي فأن القليل منهم يفكر في الاحتشام اي أن اكثرهم يواصل الزنا حتى وصوله مرتبة الاسقف. وكانت الاعمال المسرحية توضح جرح المبادئ الاخلاقية بواسطة التعصب الديني⁽⁵⁸⁾.

اصبح سكان إسبانيا منقسمين إلى متعصبين ومدّعين اي يتظاهرون بالإيمان وهم خلاف ذلك, ولا يوجد نوع متوسط بينهما (مؤمن متطرف أو منافق). وفي ظل نظام ديني يعتدي على الآخرين مثل نظام روما الذي يدعي بأن له الحق في التدخل بأي عمل للعقل البشري فأن تحريم الانشقاق عن المعتقد الكاثوليكي قيد مؤلم, فكل إسباني لا يؤمن بهذا المعتقد يتم تقييده واجباره بالقيود على الاعتقاد بما لا يعتقد به وتهديده بعقوبة خسارة كل ما يمتلك. أما عن القداست في الكنائس والاعتراف بالذنوب والمهرجانات والمواعب الدينية والانحناء للصليان والايقونات التي تمثل العذراء والمسيح, فضلاً عن شراء الغفران والمساهمة في خلاص الارواح من المطهر فأن الإسباني مجبور على القبول بهذه المسائل التي يمقتها بصفته مسيحي او يرفضها لأنها سبب انحطاط بلاده⁽⁵⁹⁾.

إن عزل إسبانيا تحت هذا الغطاء الديني كان مؤشراً إلى ان التبادل الحر بين ثقافة إسبانيا وباقي الدول وصل نهايته, وبالطبع لم تكن إسبانيا البلاد الوحيدة التي عانت من القيود الفكرية بسبب الصراع الايدولوجي بعد أن اصبحت الحركة الانسانية مستحيلة في مستقبل إسبانيا.

رابعاً: البروتستانت الإسبان المنفيون

لا بد أن تملكنا الرغبة في معرفة مصير البروتستانت الإسبان الذين نجحوا في الهروب من شبه جزيرة ايبيريا بعد أن ازدادت حدة الاضطهاد والقمع واستمرت الهجرة حتى نهاية القرن السادس عشر. وقد تمكن بعض المهاجرين الإسبان من عبور جبال البرانس ثم توجهوا إلى فرنسا وسويسرا, وبعضهم هرب عن طريق البحر واصبح لاجئاً في انكلترا والاراضي المنخفضة حيث أنشأت اول كنيسة للإسبان اللاجئين في انتويرب. وكان انطونيو دي كورانوس مثقف إسباني من اشبيلية أول قس للكنيسة البروتستانية الإسبانية في انتويرب حتى سقوطها تحت سيطرة دوق البيا Alva عام 1568, وبعد ان استعادت انتويرب حريتها عام 1570 لجأ إليها عدداً آخر من المنفيين الإسبان مع القس كاسيودورو دي ريينا من اشبيلية الذي ترجم الكتاب المقدس واستمر مع المنفيين حتى عام 1585 بعد سقوط انتويرب مجدداً تحت العبودية الإسبانية بعد حصار طويل فرضه دوق بارما. وتمكن كاسيودورو خلال فترة إقامته في انتويرب من تأليف كتاب ديني يضم اسئلة واجوبة نشره باللغة الإسبانية والفرنسية, وقبل استقراره في انتويرب كان مقيماً في المانيا التي وجد فيها عدداً من الإسبان فخدمهم كواعظ ديني ولكن رجال الدين الالمان استقبلوه ببرود بسبب ميوله نحو الآراء الكالفينية لذلك انتقل إلى بازل واكمل ترجمة الكتاب المقدس⁽⁶⁰⁾. كانت مقاطعة هيسي كاسيل والبلاتينات من اكثر المدن الالمانية التي استقبلت عدداً من البروتستانت الإسبان, ففي مدينة هيدلبيرك نشر دي مونتيس كتابه الذي فتح عيون أوروبا على غموض محكمة التفتيش الإسبانية والمعاناة التي عانى منها ابناؤه بلده البروتستانت كما ان منشورات مدينة هيس اعترفت بأيمان المنفيين من إسبانيا مع شرح الاضطهاد الديني الذي تعرضوا له. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر لجأ عدداً من البروتستانت الإسبان إلى المدن الفرنسية التي تأثرت بالآراء الكالفينية الاصلاحية رغم الحروب الدينية التي شهدتها فرنسا (1562-1598), فأستقروا في مدينة ليون التي زودتهم بوسائل التعليم الاصلاحية بوجود اخوتهم البروتستانت الذين هربوا من ايطاليا. تعاطف البروتستانت الفرنسيين مع اللاجئين الإسبان وساهموا في دعمهم واشتركوا معهم في تلك الدرجة من الحرية الدينية التي تمتعوا بها بل إن الفرنسيين واقفوا على قبول بعض الإسبان كرجال دين قساوسة في كنائسهم, والجدير بالذكر إن المجامع الكنسية الفرنسية استقبلت بعض المسلمين الذين هربوا من محاكم التفتيش الإسبانية⁽⁶¹⁾.

تعد سويسرا وانكلترا ملاذاً آمناً للبروتستانت الإسبان والايطاليين ففي عامي 1557 و1558 وصل إلى جنيف عدداً كبيراً من البروتستانت الذين هربوا من شبه جزيرة ايبيريا بعد أن منحهم مجلس الاخوانية في جنيف كافة الحقوق التي حصل عليها اللاجئين في ايطاليا. وانشأ خوان بيريث أول كنيسة إسبانية في جنيف وبعد مغادرته إلى فرنسا اشتغل اغلب اللاجئين الإسبان بالأعمال الرعوية للقس دي ريينا الذي حل محل خوان بيريث. وبما أن جميع الإسبان اللاجئين الذين ظلوا في جنيف كانوا يفهمون اللغة الايطالية فأنهم قبل نهاية القرن السادس عشر التحقوا بكنيسة تحت رئاسة الايطالي بالباني Balbani. ويعد بيدرو غاليس الشخصية الإسبانية البارزة في صفوف اللاجئين الإسبان من ناحية الثقافة والعبادة وبينما كان يقوم بتدريس اللغة الاغريقية والقضاء في ايطاليا أعتقل بتهمة الهرطقة وتعرض إلى التعذيب حتى فقد احدى عينيه لكنه استطاع الهروب من ثم تولى رئاسة كلية غيين Guienne في بورجو الفرنسية. وقد جمع مجموعة من المخطوطات القديمة وكتب عنها ملاحظات فكانت موضع إطلاع المثقفين, ولكن نتيجة الحروب الدينية التي اندلعت في فرنسا غادر إلى الاراضي المنخفضة وخلال رحلته ألقى القبض عليه من قبل اعضاء العصبة الكاثوليكية وتسليمه إلى محكمة التفتيش الإسبانية التي حكمت عليه بالأعدام حرقاً بعد تمسكه بأيمانه.

وفي عام 1542 تشكلت اخوانية للاجئين الايطاليين في جنيف، وبعد الفضل في احياء هذه الاخوانية للايطالي كالكاتسو كارا كجيولي الذي قدم خدمات كثيرة للاجئين الايطاليين في سويسرا⁽⁶²⁾.

اما بالنسبة لانكلترا فقد استقبلت اللاجئين البروتستانت من عدة بلدان، إذ تشكلت في لندن اول اخوانية للهولنديين والالمان. وتواجد الإسبان في انكلترا منذ عهد الملك هنري الثامن Henry VIII (1509-1547) الذي كان متزوجاً من كاترين الاراغونية فكانت ابنتهما ماري تستقبل الإسبان شخصياً وازداد عددهم بشكل كبير بعد زواجها من فيليب الثاني عام 1554. وبما أن اغلب الإسبان في انكلترا تخلوا عن الكاثوليكية واعتنقوا البروتستانية فأبعض المؤرخين يؤيدون الرأي القائل بأن الإسبان في انكلترا لا بد انهم سمعوا الانجيل باللغة الإسبانية خلال فترة حكم الملك ادوارد السادس Edward VI (1547-1552) ولكن رغم ذلك لم تتشكل اخوانية للبروتستانت الإسبان حتى اعتلاء اليزابيث الاولى Elizabeth I (1558-1603) عرش انكلترا⁽⁶³⁾. ففي عام 1559 كانوا يجتمعون للعبادة في اماكن معينة في لندن مثل المنازل. وفي عام 1560 قدم البروتستانت الإسبان التماساً إلى الحكومة الانكليزية للحصول على حرية الاجتماع بشكل رسمي وبصورة علنية بعد ان أنهموا من قبل أعداءهم بأنهم يحملون بعض الافكار السيئة والتي يمتقتها حتى اللوثريين إذا لم يُسمح لهم بالاجتماع علناً. كما أن بعض الإسبان البروتستانت انسحب من مجلسهم واخرين رفضوا الالتحاق بهم حتى لا تتضرر تجارتهم مع إسبانيا نتيجة حضورهم في مجلس خاص وغير مرخص رسمياً. وأضافوا بأن في حالة قيام ملك إسبانيا بالشكوى من الحرية التي منحت لهم في انكلترا فإنهم يغادرون بدلاً من بقاءهم الذي من الممكن ان يؤدي إلى صراع مع دول اخرى. وفي النهاية وافقت الحكومة الانكليزية على الالتماس واجتمعوا في احدى كنائس لندن، ولمواجهة التقارير الشريرة التي لا اساس لها من الصحة ضد استقامتهم الدينية كتب ونشر البروتستانت الإسبان في انكلترا وثيقة الاعتراف بأيمانهم بموافقة جميع البروتستانت الإسبان المنتشرين في البلدان الاخرى والتي تبرهن على تمسك الإسبان المنفيين بالعقائد الشائعة بين صفوف البروتستانت ويفضلون وجهات النظر التي تتمسك بها كنائس الاصلاح في جعلهم مع اللوثريين فيما يخص سر القربان المقدس. كان قبول انكلترا باللاجئين البروتستانت ولاسيما الإسبان للعيش على اراضيها يمثل اهانة كبرى للبابا بيوس الخامس Pius V (1566-1572) وفيليب الثاني، فأصدر البابا مرسوماً ينص على الحرمان الكنسي للملكة اليزابيث الاولى. ولم يكن فيليب الثاني اقل سخطاً من البابا فإنه لم يكتفي بأضطهادهم في إسبانيا بل ارسل من يتصيدهم في كل بلاد لجأوا إليها، ودفع مبالغ كبيرة للجواسيس الذين يراقبونهم في كل البلدان كما خصص مبالغ اخرى لعرقلة حركتهم في الانتقال إلى تلك البلدان. ففي فرنسا والمانيا ألقى القبض على بعض اللاجئين واعادتهم إلى محكمة التفتيش، اما المبعوثين الذين ارسلتهم إسبانيا إلى انكلترا لأسترجاع اللاجئين لم يجرؤوا على القيام بمثل هذه المحاولات في ارض انكلترا المؤمنة بالحرية لذلك اعتمدوا طرماً سيئة فقد اشترطوا على الحكومة الانكليزية تسليم اللاجئين على اساس انهم خائنون ومجرمون هاربين من العدالة الإسبانية؛ لذلك اتخذت الحكومة الانكليزية عدة اجراءات للحصول على معلومات دقيقة حول جميع اعضاء الاخوانيات الاجنبية في انكلترا والتي جاءت من اي ارض تحت سيطرة ملك إسبانيا⁽⁶⁴⁾.

الخاتمة

إن الإصلاح الديني المخالف للكاثوليكية في إسبانيا نُظر له على انه انشقاق اجتماعي وسياسي، فتحولت محكمة التفتيش الإسبانية التي مسؤليتها حماية الايمان المستقيم إلى مؤسسة سياسية ذات اهمية فائقة من خلال مساعدتها على جعل الكنيسة في إسبانيا تتبع التاج مع ارتباطها الروحي بروما فكرست سلطة الملك المطلقة في البلاد. ونجحت في خلق البروتستانية في إسبانيا رغم التغلغل المنتظم للكتب والافكار اللوثرية، فأمتلك سلطة عليا لإنهاء الهرطقة بمراقبتها الشديدة وتنسيقها لجهودها في كافة انحاء شبه الجزيرة الأيبيرية واصدار الاحكام الوحشية بحق البروتستانت بل إن مراسيم بابوية وقرارات ملكية عززت تلك الاحكام التي اتسمت بالقمع والاضطهاد. وخلال الفترة 1559-1962 فإن مراسيم التوبة اطفأت فعلياً البروتستانية في المملكة الإسبانية، وتساعدت وتاثر الاضطهاد والعنف الدموي التي ذهب ضحيتها آلاف البروتستانت توزعتهم المحارق والزنازات والمطامير الأمر الذي أودى بإسبانيا إلى هاوية التخلف مقارنة بدول اوربا الغربية الاخرى نتيجة تدهور مكانتها وفقدان اراضيها وخسارة تجارتها في مختلف انحاء اوربا.

الهوامش

- (1) عدنان امين محمد, حركة الاصلاح الديني في انكلترا 1517-1603, رسالة ماجستير غير منشورة, كلية التربية, جامعة الموصل, 2007, ص 29-30.
- (2) A.F.R., The Reformation in Spain Afragment, USA, 1923, P. 4-6.
- (3) Ibid., P. 5-6.
- (4) للمزيد من التفاصيل حول تأسيس وتنظيم محاكم التفتيش الإسبانية, ينظر: بشرى محمود صالح الزوبعي, محاكم التفتيش الإسبانية 1480-1516, رسالة ماجستير غير منشورة, كلية الاداب, جامعة بغداد, 1998.
- (5) عدنان امين محمد, المصدر السابق, ص 32.
- (6) J. H. Elliott, Imperial Spain 1469-1716, 1st ed, London, 1966, P. 220.
- (7) John Lynch, Spain Under the Habsburgs, Vol.2, 2nd ed., Oxford, 1981, P. 68.
- (8) Elliott, OP. cit., p.213.
- (9) Roland H. Bainton, Women of the Reformation from Spain to Scandinavia, U. S. A., 2007, P. 19-27.
- (10) Lynch, OP. cit., p.69.
- (11) Elliott, OP. cit., p. 114-115.
- (12) Marcel Bataillon, Erasmo Y. España, Mexico City, 1966, P. 69.
- (13) Thomas Mccrie, History of the progress and Suppression of the Reformation in Spain in the Sixteenth Century, Philadelphia, 1842, P. 101.
- (14) A.F.R., OP. cit., p. 6-7.
- (15) Mccrie, OP. cit., p.97-98.
- (16) غلاطية: رسالة وردت في الانجيل (اعمال الرسل) موجهة إلى سكان مدينة غلاطية التي تقع في جنوب تركيا على ساحل البحر المتوسط, تتضمن الرسالة عقيدة التبرير بالايمان التي أتخذها مارتن لوثر. للمزيد من التفاصيل, ينظر:
- Henry Kamen, Spain 1469-1714 A society of Conflict, 1st sd., New York, 1983, P. 116.
- (17) Lynch, OP. cit., p.69.
- (18) Christopher Hare, A Great Emperor Charles V (1519-1558), London, 1917, P. 94.
- (19) A.F.R., OP. cit., p. 9-10.
- (20) Quoted in: Kamen, OP. cit., P. 118.
- (21) Mccrie, OP. cit., p.101-102.
- (22) Roland H. Baintion, The Reformation, Toronto, 1956, P. 54.
- (23) Ibid., P. 33-34.
- (24) Mccrie, OP. cit., p.104-107.
- (25) Ibid., P. 104-105.
- (26) Kamen, OP. cit., P. 118-119.
- (27) V.H.H.Greeh, Renaissance and Reformation: A Survey of European history between 1450 and 1660, London, 1952, P. 143-144.
- (28) Mccrie, OP. cit., P. 108-109.
- (29) Elliott, OP. cit., p. 219.
- (30) Mccrie, OP. cit., P. 145-146.
- (31) Anne J. Cruz and Mary Elizabeth Perry, Culture and Control in Counter-Reformation Spain, The University of Minnesota, 1992, p. 46.
- (32) Mccrie, OP. cit., p. 156.
- (33) A.F.R., OP. cit., p.10-14, 17.
- (34) Mccrie, OP. cit., p.134-135.
- (35) Ibid., P. 172.

- (36) Hare, OP. cit., p. 260.
- (37) Mccrie, OP. cit., p.173.
- (38) Kamen, OP. cit., P. 116.
- (39) Rupert Hart- Davis, Europe in Renaissance and Reformation, London, 1963, P. 527-530, 546-597.
- (40) Quoted in: A.F.R., OP. cit., p.74.
- (41) قانون الايمان: يقسم إلى نوعين خاص لشخص واحد وعام لعدة اشخاص. فالمهتم يظهر أمام محكمة التفتيش داخل القاعة أما لوحده أو بوجود عدد مختار من الشهود لأصدار الحكم عليه. أما النوع العام فإنه يضم عدداً من المهترطين يُجلبوا دفعة واحدة إلى المحكمة لأصدار الحكم عليه وسط احتفال كبير بانتصار الايمان على الهرطقة، وتعد المحكمة في يوم الاحد أو عطلة في اكبر كنيسة وغالباً تعقد جلسة المحكمة في ساحة واسعة تقع في المدينة التي عقدت فيها المحكمة أمام الناس. وفي منتصف الليل الذي يسبق يوم تنفيذ قانون الايمان يدخل كاهن الاعتراف على زنازة السجناء المحكومين بالأعدام لأبلاغهم بمصيرهم الذي ينتظرهم وتحفيزهم بشدة للتوبة فإذا تابوا يتم تخفيف عقوبتهم إلى عدم حرقهم احياء بل شنقهم ثم حرق جثثهم بعد إرتدائهم رداء السانبينيو (رداء الخزي والعار) مصنوع من قماش اصفر يصل إلى الركبتين مرسوماً عليه لهيب النار نحو الاسفل رمزاً لأنقاذهم من الحرق احياء، أما السجناء غير التائبين فيرتدون السانبينيو مرسوماً عليه لهيب النار نحو الاعلى رمزاً لحرقهم احياء. للمزيد من التفاصيل، ينظر:
- A.F.R., OP. cit., p.5.
- (42) Kamen, OP. cit., P.120.
- (43) A.F.R., OP. cit., p.28.
- (44) Mccrie, Op. cit., p.191-192; Juan Rodviguez, Historia de España, Oxford, 1939, p.101 .
- (45) F.Prudencio Sandoval, Historia Del Emperador Carlos V, Tomo.II, Madrid, 1816, P. 829; Mccrie, OP. cit., p.194-195, 198-199.
- (46) A.F.R., OP. cit., p.28.
- (47) Cruz and Perry, OP. cit., P.100.
- (48) A.S.Turbervill, The Spanish Inquisition, London, 1949, P.47-50.
- (49) Cruz and Perry, OP. cit., P.100-101.
- (50) Quoted in: A.F.R., OP. cit., p.90.
- (51) Ibid., P. 90-95, 1.
- (52) E.Harris Harbison, The Age of Reformation, New York, 1967, P. 106-112.
- (53) Mccrie, OP. cit., p.179-180.
- (54) Ibid., P. 181.
- (55) Kamen, OP. cit., P.120-121.
- (56) Mccrie, OP. cit., p.281-282.
- (57) A.F.R., OP. cit., p.96-98.
- (58) Mccrie, OP. cit., p.285-287.
- (59) Ibid., P.289.
- (60) Thomas M.Lindsay, Ahistory of the Reformation, Vol.2, 2^{hd} ed., Edinburgh, 1908, P.252-254.
- (61) Mccrie, OP. cit., p.258-259.
- (62) Ibid., P. 259,267-269.
- (63) Lindsay, OP. cit., P. 358, 368, 385.
- (64) Mccrie, OP. cit., P. 270-274.